أسلوب الشعر في العصر الأموي
بين المحافظة والتجديد

الدكتور علي محمد الحبوبي
الجامعة المستنصرية/ كلية التربية/ قسم اللغة العربية

اسلوب الشعر في العصر الأموي بين المحافظة والتجديد

خضع الشعر في العصر الأموي لأوزان القصيدة العربية الخمسة عشر خضوعاً شديداً لأن هذه الأوزان عسرة التغيير ، عنيدة التطور ، لقدمها وتناقلها جيلاً بعد جيل، وعلى الرغم من عمق الهزة التي أصابت الحياة العربية بمجئ الأسلام ، واتساع الآفاق أمام العرب ، واختلاطهم بالثقافات المختلفة في الأمصار المفتوحة والأجناس الغريبة من ابناء تلك البلدان ، إلا ان التطور في هذا المجال كان ضيقاً شديد الضيق ، قائماً على ايثار بعض الأوزان على بعضها الآخر ، كما كان الحال في الشعر الجاهلي(١)، وكل الذي استجد في هذا الميدان هو النهوض بفن الرجز ، ونقله من مستوى البدائية الساذجة القصيرة النفس الى القصيد المحكم ، وكذلك الاهتمام بالأوزان القصيرة في شعر الغزل المترف ، مراعاة لفن الغناء الذي نسأ في بيئة الحجاز ، واستجابة لطلب المغنين، لسهولة خضوعه للموسيقى وسرعة أدائه على اتم وجه .

أن فن الرجز قائم على الأرتجال والأستعانة بالبديهة الحاضرة في مناسبات عارضة كالحداء حيث تتبرم النفس من السرى الموصول في البيداء الموحشة والقتال عندما يتصادم الأبطال في حومة الوغى ، ومتح الآبار حين تشعر نفس الماتح بالسأم من العمل المتواصل ، وسوى هذه الدواعي العارضة ، ثم نهض هذا الفن في القرن الاول الهجري ، واصبح قصائد طويلة ، دقيقة الصناعة ، محكمة النسج ، عالج اغراض القصيد كلها ، واهتم به الشعراء ، وقام على رعايته شعراء ذوو مكانة ، من امثال ابي النجم والعجاج وابنه رؤبة(٢) ، وادخلوه في كل مجالات الحياة الأدبية ، فكان مربد البصرة لايخلو من قصيدة تقال فيه ، كما لا يخلو من شعراء يتجاولون ويتصاولون على غرار شعراء النقائض(٣) وقد كان هذا التطور نتيجة عاملين ، أحدهما حنين الأعراب الذين استقروا في الأمصار الى حياتهم البدوية السابقة ، إذ سرعان ما كانوا يلتقون بالبدو القادمين من الصحراء ليسمعوا أراجيزهم ، وثانيهما بدء الاشتغال بجمع اللغة وضبط قواعدها ، إذ كان علماء اللغة يلتقون بالأعراب ويسمعون منهم بعد ان اطمأنوا الى سلامة السنتهم من آثار العجمية والدخيل والضعف ، فضلاً عن أنَّ كثرة الغريب في الرجز كانت تغري العلماء به اكثر مما يغريهم الشعر نفسه .

وفي مجال ترتيب الموضوعات حافظت القصيدة على النهج الجاهلي ، فكان الشعراء يبدأون قصائدهم بالغزل ويتطرقون منه الى وصف الرحلة في الصحراء ، ونعت الناقة وذكر احوالها ، ثم يتقدمون – بعد هذا التمهيد – الى الغرض المطلوب من انشاء هذه القصيدة مدحاً كان أو هجاءً أو فخراً .

كان التشبيب مطلع القصيدة ، وفيه يسترسل الشاعر بالحديث عن المواضع التي عفت آثارها ، عندما غادرها الأحبة ، ويصور ما اعتراه من الذهول لهذا الفراق ، وكأن ضربة قوية نزلت عليه ، أو صرع لاكثاره من الخمر ، حتى لم يعد يعي شيئاً من أموره ، كما في قول الأخطل(٤) :

عفا واسطٌ من آل رضوى فنبتلُ　　فمجتمعُ الحرين فالصبرُ أجملُ
فرابية السكران قفرٌ فمالهم　　بها شبح الأسلام وحرملُ
صحا القلبُ إلا من ظعائن فاتني　　بهن ابن خلاس طفيل وعزهلُ
كأني غداة انصعن للبين مسلمٌ　　بضربة عنق او غوي معذلُ
صريع مدام يرفع الشرب رأسهُ　　ليحيا وقد ماتت عظامٌ ومفصلُ
تهاديه احياناً وحيناً تجرهُ　　وما كاد إلا بالحشاشة يعقلُ
إذا رفعوا عظماً تحامل صدرهُ　　وآخرُ مما نال منها مخبلُ

وإذا كان الشاعر الجاهلي يتوج بها قصيدته فلما لها من دلالة في النفس وعلاقة بالحياة، ولا شأن للتقليد في ذلك ، فهو مبتدعها وصاحبها،ولكن ما علاقة الشاعر الأموي بهذه المقدمة الغزلية ؟ هل فرضها الواقع او دفعت اليها الظروف او استدعاها التقليد ؟ إن هذه الأمور مجتمعة كانت تؤثر في الشاعر فتؤثر بدورها على شعره ، فالحياة في العصر الأموي ، ولاسيما في البادية ، لم تختلف عما كانت عليه في العصر الجاهلي ، فقد ظل السعي وراء منابت الكلأ ومصادر المياه شغل القبائل في كثير من الأحيان.

إن هذه التقاليد – في بعض الاحيان – نابعة من واقع الحياة ومسايرة لها ، وهي- في أحيان أخرى – صورة من قوة هذه التقاليد وسلطانها القاهر ورسوخ جذورها في ملكات الشعراء وهيمنتها على طاقاتهم الفنية .

وقد يكون الخضوع لهذه المقدمة امراً غريباً ،حين يستعين بها الشاعر في مواطن الرثاء ، وكأنها الضريبة المفروضة عليه ، بل الأمر الملزم ، وإلا ما لعلاقة بين ميت وسد الثرى وهذه المرأة التي يفتن الشاعر في نعت محاسنها ويطنب في وصف اعضائها واحوالها

وشؤونها؟ فإذا منحها حظها من الحديث غادرها الى غرضه ، فوقف على الرحل ونوه به ونشر آثاره ومأثره ، شأن أعشى همدان حين رثى قتلى التوابين في معركة عين الوردة في قصيدة مطلعها (٥) :

ألمَّ خيالٌ منك يا أم غالبِ　　　فحييتِ عنا من حبيبٍ مجانب

ولكن الكميت بن زيد هدم المقدمة المتعارفة وبنى أخرى غيرها في فاتحة قصائده الهاشميات ، مثل قوله (٦) :

من لقلبْ متيم مستهام　　　غير ما صبوةٍ ولا أحلام
طارقاتٍ ولا ادكار غوان　　　واضحات الخدود كالآرام

ثم انتقل الى غرضه :-

بل هواي الذي أجن وأبدي　　　لبني هاشم فروع الأنام

وبهذا نقل التمهيد الذي درج عليه الشعراء في ايامه – راغبين أو مكرهين تحت سلطان التقليد – وجعله جزءً من مشاعر الشاعر وفاتحة فيضه الى الغرض المطلوب الذي تحمل الكميت سخط الناس بسببه ، وهو حب آل البيت والتعليق بهم .

ولكن لم يحذ حذو الكميت أحد ، وبقيت القصيدة تحترم هذه البداية وتخضع لها ، ولم تسع للتحرر منها ، أو تخضع لأهواء نفس منشئها وظروفه ، وبقي الشعراء متعلقين بأهدابها في المناسبات والأغراض ، تتصدر قصائدهم ومشاعرهم في آن واحد.

أما الحديث عن الصحراء فهو الحلقة الثانية من حلقات الارتباط بالقصيدة الجاهلية ، إذ تعرض مخيفة ، تقذف الناقة بين اطباقها ، لتعرف نجابتها وقوتها ، وتحملها الاهوال والمشاق ، وهذا ما يرى في اشعار الاخطل وذي الرمة والطرماح الطائي ، وسواهم من الشعراء .

ان صور الصحراء المبتغاة هي الثائرة الصاخبة ، المنذرة المعولة ، هي أهوال وأخطار، يتخبط سالكها وسط مسافاتها الشاسعة وابعادها المترامية ، على ظهر ناقة شديدة الجري ، وقد تجاوبت فيها اصوات الجن ، وامتزجت بنواح البوم ، وجثا السراب على صدرها ، وغشى معالمها ، واستقر القيظ بوهادها ، وانتثرت فيها العين والنعام ، كما يقول ذو الرمة(٧):-

تيهٍ خبطنا غولها فارتمى بنا　　　أبو البعد من أرجائها المتطاوحُ

فلاةٍ لصوت الجن في مذكراتها　　　هزيز وللأبوام فيها نوائحُ
إذا ذات اهوال ثكولٍ تلونت　　　بها العين فوضى والنعام السوارحُ
تبطنتها والقيظ ما بين جالها　　　إلى جالها ستراً من آلال ناصحُ
بمقورة الألياط عوج من البرى　　　تساقط في آثارهن السرائحُ

واكثر ما تكون الصحراء مفزعة حين تصور جرداء عارية ، تجر الريح فيها متنها، وتجوب نواحيها ، وينشر الليل ارديته الحالكة ، فيغطي المعالم الراقدة ، ويمتلك الهلع نفوس الظاعنين ، وتضيق انفاسهم ، وهو يحثون المطايا الى اجتيازها(٨):-

وأرض خلاءٍ تسحلُ الريحُ متنها
كساها سواد الليل اردية خضرا
قموس بخمس الركب تيهاء مايرى
بها الناس إلا أن يمروا بها سفرا
طوتها بنا الصهب المهارى فأصبحت
تناصيب أمثال الرماح بها غبرا

وتوضع الناقة في هذا المكان ، تصطدم بهذه المحن ، والأهوال والخطوب ، لترى إن كانت أهلاً لهذا المكان وجديرة به ، أم لا ، فيعرف عتقها وتحملها وصبرها وفوزها، أو ضعفها وعجزها وهلاكها .

فاذا وضعت الناقة وتحدث الشعراء عنها ، أخذ حديثهم طريقين ، الأول ان تكون محور الحديث ، من مظاهر القوة والتحمل ، وإمارات الضعف والهزال والضمور ، وأحاسيس الألم والوجع والشكوى ، وفي خضم ذلك ضروب من التشبيه والاستعارة ، يتطلبها الموصوف ، والحال ، والمآل ، غب هذه الرحلة الشاقة .

والسرعة اول صفة تُسْتَرعي في الناقة ، وَيُأكَد عليها تاكيداً مباشراً ، بل هي أجل صفة تطرى بها الناقة وتختبر ، لتعرب عن اصالتها وتحملها المشاق .

وقد ارتبطت بهذه الصفة مظاهر مادية ملموسة من البدن القوي والأعضاء الموثقة والفقار الملتحمة ، فهي رشيقة القوام ، عالية البناء ، تجوب البيد جوباً ، وتعدو فيها عدواً ،حتى كأن الرحل على ظهرها عش طائر فوق نخلة طويلةٍ ،كما قال ذو الرمة(٩):

وحرفٍ نيافِ السمكِ مُقورة القرا　　　دواء الفيافي ملعها وخبيبها

كأن قتودي فوقها عش طائر   على لينة سوقاء تهفو جنوبها

واذا بهذه الناقة مع التعب الشديد لا تترك مطمعاً للنوق في اللحاق بها ، إذ تحرك ذراعيها وترمي بوسطها خوف الضرب ، وترفع رأسها خشية السوط أو جر الخطام ، في قول ذي الرمة (١٠) :

تراها وقد كلفتها كل شقةٍ   لأيدي المهارى دونها متمتحُ
تموج ذراعاها وترمي بجوزها   حذاراً من الأيعاد والرأس مكمحُ

وبعد هذا النشاط ضمور وهزال ، فتغور عيناها وتصبحان كأنهما نقرة في صخرة أو بئر منزوحة ، كقول الأخطل(١١) :-

وقد ضمرت حتى كأن عيونها   بقايا قلاتٍ اوركي ممكل

ثم الشكوى والأنين ، إذ تصرخ من اعماقها جراء ما تعانيه من النسع في صعوده وهبوطه على صدرها ، وما يتخلف عن ذلك من جراح ، وتأن كالفتى المريض لعوداه مايحسه من الآلام والاوجاع ، كقول ذي الرمة (١٢) :-

تئن إذا ما النسع بعد اعوجاجها   تصوب في حيزومها ثم أصعدا
أنين الفتى المسلول ابصر حولهُ   على جهد حالٍ من ثناياه عودا

أما الثاني فهو ذكر الناقة ذكراً سريعاً ، والانتقال الى سرد أحوال الحمار والثور والظليم ، بغية المشابهة في صفات السرعة والقوة والقدرة على مواجهة المشاق والأهوال .

وأحوال الحمار عندما ضحكت له الطبيعة ، فجادت عليه بالماء والنماء أياماً ، ثم عبست في وجهه وامسكت فلا ماء ولا نماء ، فتحير واضطرب ، ومعه حلائله ، فاندفع يسوقهن عند غروب الشمس سوقاً عنيفاً في ارجاء الصحراء ، حتى وقع على عين ماء ، فتهلل وجهه واستبشر ، وتقدم وأتته ليبل الريق ، والصائد يرقب القطيع الظامئ على احر من الجمر ، فلما اطلق سهامه وطاشت في الهواء ذعرت الحمر ففرت ، وآب الصائد منفضاً .

وأحوال الثور حين عصفت الطبيعة بوجهه ، وداهمته بالمطر والريح والبرد ، ففر منها الى موضع آمن يقضي فيه الليل ، وبقي مسهداً قلقاً حتى أراحه الصبح فتنفس الصعداء ، وانطلق يعدو مرحاً محبوراً فاعترضته كلاب الصيد وراحت تطارده ، فلما لم يجده الركض

كر راجعاً اليها ، واثارها حرباً عليها ، فجندل قسماً وجرح قسماً آخر ، وتركها إلى غايته .

أما احوال الظليم فذاك عندما خرج وزوجه الى عرض الفلاة يطلبان الطعام لهما ولأفراخهما ، ونسيا أفراخهما حتى نبههما الظلام وقد بعدت الشقة ، فكرا قافلين بسرعة متناهية ، ومشاعرهما تسبق اقدامهما الى فلذات الاكباد .

هذه هي الصور المأثورة قد اولع بها ذو الرمة والأخطل ولعاً شديداً ، فاقا الشعراء الآخرين ، وهي عندهما وحي البيئة والثقافة ، أما عند غيرهما فوحي الثقافة ليس غير ، فمن عاش في الحاضرة كالطرماح والكميت لا ينفعل بمؤثرات البادية وأحوالها وسلطانها على انسانها وحيوانها ، بل ينفعل بمؤثرات الثقافة ومغرياتها من اتقان التقليد واجادة المحاكاة .

كما التزمت القصيدة بأنماط من التشبهات والصور ، بدت – في اكثرها - أمارات الجمود والتقليد ، مثل تشبيه الصحراء بالسماء في السعة والاستواء ، وتصوير وحشتها بتراطن الجن ونواح الأبوام وحسيس القفر ونداء الخلاء ، وأنها مطموسة المعالم ، ميتة الآثار ، يخشاها السالكون ، وان ماء آبارها أسن لا تقربه الابل ، وحرارتها جحيم لا يطاق ، وسرابها خانق يطوق الاكمام ويغرق الأغوار ، وحرباؤها تتلوى من الحر ، كأنها تتأرجح في بجبلين في بئر ، أو كأنسان نضا ثوبه ورفع يديه ، وأبلها كالسفن الصغيرة التي تداعبها أمواج دجلة .

وتشبيه الناقة بالجمل الضخم ، ووصفها بوثاقة الأعضاء ، وتلاحم الفقار ، وتصوريرها قبل السفر مكتنزة اللحم ممارعته من النبات الكثيف ، وتصويرها بعد الرحلة هزيلة ضامرة ، قد ذاب شحم عينيها فبدتا مثل بئر شحيحة الماء او كنقرة في الجبل ، وارتعشت أخفافها الغليظة حتى غدت لا تقوى على حملها ، واخذت تئن من اثر الأنساع والبري انين الفتى المسلول الى عواده ، وتشبيه ارتفاعها كأن رحلها عش طائر فوق نخلة طويلة ، وخدها بالمرآة ، وعينها كعين الثور الوحشي ، وشفرها كجلود البقر اليمانية المدبوغة ، ورجلها كظل الذئب ، ورؤوس عظامها – وهي آثار ثفناتها الأربع وكركرة صدرها – بمعرس خمس قطا متجاورات ، وتتدفع مسرعة لا تقف لولدها حين تلقيه ، ولا تلجئ راكبها الى ضربها بالسوط بل تعي ما يريد منها ، وتسابق النوق فتسبقها فلا تلحق بها ، ولاتؤثر فيها حرارة الشمس ، فلا ينكسر طرفها ، ولا تذوي همتها ، وسوى ذلك من

التشبيهات والصور حين يتحدث عن الحمار والأتن والثور ، والنعامة والظليم ، وحيوانات اخرى من عالم الصحراء .

لقد استقرت القصيدة الأموية على دعائم القصيدة الجاهلية ، فالبداية هي الغزل والطلل ، والصحراء والحيوان ، والعوالم المخيفة والناقة ، والغرض المطلوب وهو المدح أو الهجاء ، واذا كانت القصيدة الجاهلية قد أحترمت هذه الدعائم بدافعي الشعور والواقع فهي – أي القصيدة – في العصر الأموي شعور وواقع عند شعراء البادية أو المتأثرين بموحيات البادية وعند شعراء الحواضر تقليد ومحاكاة ليس غير، لانهم بعيدون عن البادية ومؤثراتها.

ثم واجه الشعر مختلف التأثيرات ، وأحدقت به ضروب من النشاط في العلم والمعرفة ولاسيما في بيئة العراق ، والتقى الشعراء بهذه الثقافة المتنوعة على قدر ما سمحت به الظروف ، وما ثار في نفوسهم من نوازع الرغبة والأقبال ، فكان لابد للشعر من ان يتأثر بهذا الجو العام ، وأن يُصيبه من رذاذه المتطاير مايصيبه ، فينعكس فيه ، ويكون اثرا من آثاره ، وقد تأثر الأسلوب بهذا التغيير ، وكان من ناحيتين :-

الناحية الاولى : في استعمال التعابير والكلمات التي وفدت مع الحياة الدينية والسياسية والثقافية ، فكثر ذكر النبوة والخلافة والخليفة والمشاعر والآذان ، مثل قول جرير حين فخر بقومه وهجا الأخطل وقومه (١٣):-

إن الذي حرم الخلافة تغلباً   جعل النبوة والخلافة فينا
مضر أبي وأبو الملوك وهل لكم   يا خزر تغلب من أبٍ كأبينا
هذا أبن عمي في دمشق خليفة   لو شئت ساقكم الى قطينا
إن الفرزدق إذ تحنف كارهاً   أضحى لتغلب والصليب خدينا
ولقد جزعت الى النصارى بعدما   لقي الصليب من العذاب مهينا
هل تشهدون من المشاعر مشعراً   أو تسمعون من الأذان اذنيا!

وعندما ذكر جرير بعوث أمير المؤمنين الى قتال الخوارج حشر معهم ملائكة الرحمن ، وأنهم لا زاد لهم سوى التوكل على الله والتسبيح بحمده ، في قوله (١٤) :-

فيهم ملائكة الرحمن مالهم   سوى التوكل والتسبيح من زاد

وفي موضع مدح الخليفة عمر بن عبد العزيز ذكر النبي (ε) ، والخلافة والأمام العادل والقرآن وابن السبيل والفقير العائل(١٥) :-

إن الذي بعث النبي محمداً ‌ ‌ ‌ ‌ جعل الخلافة في أمام عادل
وسع الخلائق عدله ووفاؤه ‌ ‌ ‌ ‌ حتى ارعوى واقام ميل المائل
والله انزل في القرآن فريضة ‌ ‌ ‌ ‌ لابن السبيل وللفقير العائل

ولما مدح العديل بن فرخ العجلي الحجاج بن يوسف الثقفي ، والي العراق ، ذكر انه خليل أمير المؤمنين وسيفه ، وقد بني قبة الأسلام ، وكأنما هدى الناس من بعد الضلال رسول ، في قوله (١٦):-

ولو كنت بالعنقاء أو بأسومها ‌ ‌ ‌ ‌ لكان لحجاج على دليلُ
خليل أمير المؤمنين وسيفه ‌ ‌ ‌ ‌ لكل أمام مصطفى وخليلُ
بني قبة الإسلام حتى كأنما ‌ ‌ ‌ ‌ هدى الناس من بعد الضلال رسولُ

كما ذكر الأخطل بعض الأنبياء من امثال يوسف وهارون وداوود ونوح في معرض مدحه للخليفة يريد بن معاوية ، في قوله (١٧) :-

جزاء يوسف إحساناً ومغفرةٌ ‌ ‌ ‌ ‌ أو مثل ما جزي هارون وداوودُ
أو مثل ما نال نوحٌ في سفينتهِ ‌ ‌ ‌ ‌ إذ ستجاب لنوح وهو منجودُ
أعطاه من لذة الدنيا وأسكنه ‌ ‌ ‌ ‌ في جنةٍ نعمة فيها وتخليدُ

وأغلب الظن أن اقتباس الأخطل لهذه الأسماء من الانجيل لامن القرآن ، لأنه نصراني لم يسلم ، عندما اراده الخليفة عبد الملك بن مروان الى الأسلام ، ولم يختلف الى حلقات الدرس في الكوفة والبصرة ، عندما يقصدهما لبعض شؤؤنه ، فلما رأى حب الخلفاء للجديد ، وإقبال الشعراء الآخرين في تلبية مطالبهم ، مال الى الأنجيل ، فاقتبس مادة زين بها اسلوبه وأرضى رغبة الخلفاء في آن معا . وسوى الأخطل شعراء آخرون لم يخل شعرهم من هذه التعابير والكلمات ، على اسهامهم وتأثرهم بالحياة من حولهم .

الناحية الثانية : التضمين ، ومجاله واسع كبير ، يشمل ما أثير من المسائل والقضايا يومذاك ، وما استجد من المفاهيم والآراء في ميادين الدين والثقافة والسياسة .
وكان القرآن الكريم أول مصادر الشعراء في الاقتباس ، وقد ورد على نوعين:

النوع الأول : الأقتباس الظاهر ، هو الذي ترى الآيات فيه وتقرأ ، من دون عناء أو تفكير، وكل ما بذله الشاعر هو النسيج الشعري ليس غير ، مثل قوله عيسى بن فاتك الحبطي حين أشاد بأنتصار الخوارج على جند الدولة الأموية ، وتمزيقهم شمل هذا العدد الغفير، وهم قلة قليلة (١٨) :-

هم الفئة القليلة غير شكٍ   على الفئة الكثيرة ينصرونا

استقى هذا المعنى من قوله تبارك تعالى : { كم من فئةٍ قليلةٍ غلبت فئة كثيرة بأذن الله ، والله مع الصابرين } .

وقال جرير (١٩) :-

من يهده الله يهتد لا مضل له   ومن أضل فما يهديه من هادي

أشار بذلك الى قوله جل وعر :{ من يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً } .

وقال عمران بن حطان (٢٠) :-

فنحن بنو الأسلام والله واحد   وأولى عباد الله بالله من شكر

أخذه من قوله تعالى : { إن اكرمكم عند الله اتقاكم } .

وقال الفرزدق في هجاء جرير (٢١) :-

ضربت عليك العنكبوت بنسجها   وقضى عليك به الكتابُ المنزلُ

أشار الى قوله تعالى : { وان اوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون } .

والنوع الثاني : الاقتباس الخفي ، وهو الذي تلمع الآيات فيه ، عن طريق الاشارة التي تقود الى الحدث أو القصة .

مثل قول جرير في مدخ الحجاج (٢٢) :-

دعا الحجاج مثل دعاء نوح   فأسمع ذا المعارج فأستجابا

أشار بذلك الى قوله تعالى : { وقال نوح ربِّ لاتذر على الارض من الكافرين ديارا، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفاراً } .

وقول الفرزدق في مروان بن الحكم – والي المدينة لمعاوية بن ابي سفيان – عندما توعده وأمره بترك المصر وأجله ثلاثة ايام (٢٣) :-

توعدني واجلني ثلاثاً		كما وعدت لمهلكها ثمود

اراد بذلك قوله عز وجل: { فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة ايام ، ذلك وعد غير مكذوب } .

وقول عمران بن حطان حين فارق روح بن زنباع الجذامي(٢٤) :-

لو كنت مستغفرا يوماً لطاغيةٍ		كنت المقدم في سري وأعلاني
لكن ابت لي آيات مطهرة		عند الولاية في طه وعمران

قصد قوله تعالى :{ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين } .

بعد هذا وجه الشعراء – وبخاصة في العراق – موجة الزهد وما تبعها من التقشف والنسك والتعبد ، وقد وجدت اسباب اعانتها على الذيوع بين اوساط الناس على مختلف طبقاتهم ودرجات تدينهم منها : اتصال بيئة العراق بالرهبنة النصرانية وتاثرها ببعض تعاليمها وسلوك اقطابها وتصرفهم ، وشيوع الحروب الداخلية التي استمرت اعواماً ، اريقت دماء وانتهكت محارم وانفقت اموال ، ولم ينل العراقيون سوى العذاب والقتل والتنكيل على ايدي اقسى الولاة واعتاهم ، من امثال الحجاج بن يوسف الثقفي ، فذوت آمالهم ، وماتت امانيهم ، وركبتهم الاحزان والآلام ، فمالوا الى الزهد ، وتركوا الدنيا ومغرياتها ، وفروا الى الآخرة فتعلقوا بها ، ومنوا انفسهم بمتاعها الخالد ، وقد امتلأت هذه البيئة بأعلام الزهاد ، وحفلت الروايات بصنوف تعبدهم ، وأقوالهم ، ومعظمها في الخوف من عقاب الله والفرار من ناره ، والطمع بمغفرته ورضوانه(٢٥).

وقد عاش الشعراء هذه الحياة ، والتقوا بالأقطاب والأعلام ، فماذا كان موقفهم من هذه الحياة ، ومن هؤلاء الزهاد؟

اتسم موقف الشعراء يومذاك بعنف الصراع بين القديم بقيمه المادية وبين الحديث بقيمه الروحية الجديدة ، وقد تمخض عنه اختلاف ظاهر بينهم في مقدار التجاوب مع الجديد وصورة الانفعال فيه . فشعراء طغت عليهم هذه الموجه وتغلغلت الى أعماقهم ، وتركت آثاراً في أفعالهم واخلاقهم وفي ادبهم في آن معاً ، وشعراء مسّت آدبهم وتحاشت أفعالهم وأخلاقهم ،وكان من ثمار الفريقين أدب مختلف الصور والمعاني .

فالفرزدق الذي شهر بالعبث والمجون والفسق أصابه شئ من هذه الموجة ، فقد خرج في جنازة زوجه النوار ومعه الحسن البصري ، فقال له الحسن وهما عند القبر : يا ابا فراس! ما أعددت لهذا المضجع ؟ قال الفرزدق شهادة ان لا اله إلا الله من ثمانين سنة ، فقال له الحسن : هذا العمودُ فأين الطنب؟ فقال الفرزدق في الحال(٢٦):-

أخاف وراء القبر - إن لم يعافني   أشد من الموت التهاباً وأضيقا
إذا جاءني يوم القيامة قائدٌ   عنيفٌ وسواق يسوق الفرزدقا
لقد خاب من اولاد دارم من مشى   الى النار مغلول القلادة أزرقا
يقاد الى نار الجحيم مسربلا   سرابيل قطران لباساً محرقا

فأن كان هذا شأن الفرزدق فأين منه جرير الذي عرف بالتدين والتقوى والعفاف؟ لقد روي عنه انه كان يبكي عندما تمر الجنائز من امامه ، ويقول : (احرقتني هذه الجنائز)(٢٧) ،فما هو اثر الدين في شعره ؟ لقد رثى زوجه ام حزرة رثاء مفعما بالاسى، طافحاً بالشعور الديني ، من مثل قوله (٢٨) :-

صلى الملائكة الذين تخيروا   والصالحون عليك والأبرارُ
وعليك من صلوات ربك كلما   نصب الحجيج ملبدين وغاروا

فالآثار الإسلامية متوهجة ، سواء أكانت مشاعر أم كلمات وتعابير ، وهي كلها انفعال بالأسلام وتأثر به وفيض من بحره .

وكانت تعاليم الدين موضع اهتمام الشعراء ، حين بسطت وبنيت الفرائض الواجبة ، من الصوم والصلاة والحج والزكاة والجهاد ، فالصلاة مثلا ركعات مقررة في اوقات معلومة ، فاذا سافر المرء اختصرت الرباعيات لعلة شرعية ، فالتفت ذو الرمة الى هذا المعنى الاخير عندما كان يتحدث عن الصحراء وعالمها المفزع والهلع الذي تنزله في قلوب السالكين ، حتى انهم يقصرون الصلاة ، خوفا، ويمسحون ايديهم بالتراب ، ضنا بالماء(٢٩) :-

ودلج مخروط العمود   سيراً يراخي منة الجليدِ
ذا قحم وليس بالتهويد   حتى استحلوا قسمة السجودِ
والمسح بالايدي من الصعيد   نبهتهم من مهجع مردود

فالرحلة ليلاً ، والرجال الأشداء قد حملهم امرٌ عظيم على هذه الرحلة وتجسم اهوال الصحراء ومخاوفها ، فخاضوا عباب هذه الفلاة خوضاً ، وارهقوا أنفسهم ارهاقا، وتقطعت اوصال الزمن ، وهم لا يكفون عن السير الحثيث ، ولا يؤدون الصلاة إلا قصرا ، ويتيممون خوفا وحرصا ، ففي اعماق هذا المجهول المترامي ما يهلكهم ويطويهم بين اطباقه .

وتكلفت بيئة العراق بحياة علمية صاخبة ، قام بمهامها العلماء وطلابهم ، وغصت بهم الجوامع وحلقات الدرس، وشهد الناس حجاجهم ومناظراتهم في ألوان العلوم والمعارف من دينية ودنيوية ، وكانوا يتدافعون الى هذه المجالس ، معهم الشعراء ، ابتغاء الفائدة ، فاذا الأخبار تعلق بأفئدتهم ، والأحاديث الدينية تداعب عقولهم ،والفتاوى الشرعية تستوقفهم وتثير فضولهم ، واذا بهذا كله او بعضه يظهر في أشعارهم ، فمن ذلك ماورى أبو بكر الهذلي قال : (إنا لجلوسٌ عند الحسن إذ جاء الفرزدق يتخطى حتى جلس الى جنبه ، فجاء رجل فقال يا أبا سعيد ! الرجل يقول لا والله ولم والله في كلامه ... لايريد اليمين ، فقال الفرزدق : اوما سمعت ما قلت في ذلك ؟ قال الحسن : ماكل ما قلت سمعوا ، فما قلت ؟ قال : قلت :

ولست بمأخوذ بلغو تقوله   اذا لم تعمد عاقدات العزائم

... فلم ينشب أن جاء رجل آخر ، فقال : يأبا سعيد! نكون في هذه المغازي فنصيب المرأة لها زوج أفيحل غشيانها ولم يطلقها زوجها ! فقال الفرزدق : اوما سمعت ما قلت في ذلك ؟ قال الحسن : ماكل ماقلت سمعوا : فما قلت ؟ قال : قلت :

وذات حليلٍ انكحتنا رماحنا   حلالٌ لمن يبني بها لم تطلق(٣٠)

فإن قال الفرزدق في مسألتين فربما قال في مسائل اخرى ضمنها شعره ، فكانت من معالم الحياة العلمية وآثارها المباشرة عليه .

وساد الصراع السياسي بين المسلمين ، وصاروا احزابا ثلاثة : الخوارج والشيعة والأمويين ، ودعا كل حزب لقوم وانتصر لرأي ، وقاتل عليه ، وتوزع الشعراء بين هذه الاحزاب الثلاثة ، وتأثروا بها ، فراحوا ينشرون آراءها ويذيعون مبادئها بين الناس.

دعا حزب الخوارج الى ان الخلافة حق عام للمسلمين جميعاً ، لا يختص بها قريشي لقرشيته ، ولا هاشمي لقرابته من الرسول(ع) وأنكر ألوان التعصب كلها ما خلا التعصب للاسلام ، كقول عمران بن حطان(٣١) :-

فنحن بنو الاسلام والله واحدٌ   وأولى عباد الله بالله من شكر

ودعا حزب الشيعة الى الخلافة لآل البيت ، وراثة فيهم ، تحدرت اليهم من النبي الى ابن عمه على وصية ، لايجوز ان تتجاهل او تجحد ، كقول كثير بن عبد الرحمن(٣٢):-

وصي النبي المصطفى وابن عمهِ   وفكاك اغلالٍ وقاضي معارم

أما حزب الأمويين فقد دعا الى إن الخلافة حق مفروض لهؤلاء الخلفاء ، فوضهم الله اياها ، وامرهم بسياسة الرعية والسهر على مصالحهم ، ولايجوز ان ينكر حقهم، أو يتمرد على سلطانهم ، فخلافتهم قدرٌ من الله ، والناس مجبرون على الانقياد لهم والرضا بحكمهم حين كتب الله ذلك عليهم ، ولا مفر لما كتبه وقدره ، وقد ذكر جرير ذلك في مدح الخليفة عمر بن عبد العزيز (٣٣) :-

نال الخلافة إذ كانت له قدراً   كما أتى ربه موسى على قدر

وألوان أخرى من نشاط هؤلاء الشعراء في ميدان الحزبية ، إذ نشروا المبادئ والأفكار ، ودعموها بما يتوافر لديهم من الأدلة العقلية والنقلية والعاطفية التي تجمع الحب والغرض ، أو أحداهما في النفس والشعور .

كان لحياة اللهو اثر في الناس والشعراء ، ولاسيما في البصرة ، حين اقيم المربد ، فهفت النفوس الى الغابر ، وتنسمت رائحة الجاهلية وبعض ترابها ، فنهض الشعراء من امثال الفرزدق والأخطل وجرير فأثاروا الرائحة والتراب على الغادين الى المربد ، فكان فن النقائض ، وقد امتاز هذا الفن بتوليد المعاني واختراع الصور ، والإسراف في ذكر العورات والتفصيل فيها .

وتوليد المعاني ذكر جرير لوقعة البشر التي هزت الأخطل وقومه هزاً عنيفاً ، حين أوقع زعيم قبيلة قيس الحجاف السلمي بالتغلبيين وقتل منهم ثلاثة وعشرين رجلا ، فقال:- (٣٤)

بكى دوبلٌ لا يرقئ الله دمعهُ   ألا إنما يبكي من الذل دوبلُ
جزعت ابن ذات الفلس لما تداركت   من الحرب أنيابٌ عليك وكلكلُ
فإنك والجحاف يوم تحضنه   أردت بذاك المكث والورد أعجلُ

وفي هذا الميدان كان جرير يستطرد ويسرف في الأستطراد ، ويطلق أعنة فكره بحرية وسماح ، حين يذكر أن الحرب قد ثارت بين القبيلتين بوحي من الأخطل، فاذا قومه صرعى تسفي عليهم الريح ، وتصهر اجسادهم الشمس ، واذا النساء أيامي قد فقدن الأزواج وامتحن بالثكل ، واقبلن على الأخطل ينعين فعلته الخرقاء وتصرفه الأهوج عندما أثار الجحاف عليهم وعرض به ، وهو لا يحير جواباً ولا ينبس ببنت شفة ، واذا ابطال قيس من الجحاف وزفر والهذيل قد ادركوا ثأرهم وشفوا انفسهم وألقوا الرعب في قلوب اعدائهم ، حتى اصبح اسم قيس يفزع تغلب كلها ، برجالها ونسائها ، وشبابها وشيوخها ، ويؤرق نومهم ويقض مضاجعهم .

إن المعنى اليسير الهين يتحول عند جرير الى معان كثيرة ، فيها الحق والباطل ، والصدق والكذب ، وكلها تخدم الغرض وتؤدي المراد .

واختراع الصور حديث جرير عن حرفة الحدادة التي اتهم بها الفرزدق ، فكان يُعيره بها كلما تعرض لهجائه ، فقد ذكر ان حدراء – زوج الفرزدق – انكرت هؤلاء القيون وريحهم واسمالهم البالية المتهرأة ، ومعهم زوجها في زيه المهين ، وقد علاه صدأ الحديد وسواد الآلات ، وقد أقبل عليها ذات يوم وطلب منها أن ترقع الاكيار ، فالتفتت اليه مستفهمة ، وكيف ترفع الاكيار ؟ انها لم تعرف الأكيار ، فجدها خالد ، ولهذا فليقم باصلاحها بنفسه ،فجده القين ، وهو الخبير العليم ، إذ قال(٣٥) :-

حدراء انكرت القيون وريحهم والحر يمنع ضميه الأنكارُ
لما رأت صدأ الحديد بجلده فاللون اورق والبنان قصارُ
قال الفرزدق : رقعي اكيارنا قالت : وكيف ترقع الأكيار؟
رقع متاعك إن جدي خالد والقين جدك لم تلدك نزار

وكان الاستطراد مطيه جرير الى غريمه ، فيبين إن آلات هذه الصناعة قد ورثها الفرزدق عن ابيه غالب ، وقد وجدت مدفونه في قبره في المقر(٣٦) ، ففاز بها الأبن ، وانها لتركه غالية ، من الكلبتين وعدل الحمم والأكيار والعلاة والقدوم ،وسوى ذلك من مخلفات الراحل ، عند ذاك توفر الفرزدق على هذه الصناعة ، لم يرعنها بديلاً فهي حرفة الآباء وسرهم الموصول الى الابناء ، فاذا التفتت اليه وجدت الصناع حوله منهمكين في عملهم ، يصلحون القدور والأواني ، والنار والدخان المتصاعد ، والفرزدق معهم بثيابه الغارقة

بالسواد والاقذار يغدو ويروح في المكان ، ويتناول القدور والاواني، ويصلح ويغسل، ويقرب الى النار ، ويعالج الكير ، حباً بهذه الحرفة العريقة، والتصاقاً بمخلفات الآباء والاجداد .

أما حديث البذاءة فجرير والفرزدق فرسا رهان ، لهما صولاتهما وجولاتهما ، فإن تصدى الفرزدق لجرير تناول امه ونساء كليب ، وألصق بهن كل فعل منكر قبيح ورماهن بالزنا ، احترافا وكسبا

وان تصدى جرير للفرزدق أخذ بتلابيب فقيرة – جدة الفرزدق – والنوار - زوجته ، فلايدعهما إلا وكل نابية بذيئة تطاردهما وتلتصق بهما .

وهكذا كانت النساء ميدان الحديث الرخيص ، تتناثر الاعراض ، وتتمزق حجب الحياء، والدين والادب .

ونرى من كل ماتقدم أن اسلوب القصيدة في العصر الأموي هو اسلوبها في العصر الجاهلي ، طلل او غزل ، وصحراء وناقة ، ومدح او هجاء ، وان لم يبرأ من الجديد سواء أكانت كلمات وتعابير أم افكاراً ، وهذا الجديد شذرات تائهة في خضم القصيدة الأموية الجاهلية ، او الجاهلية الأموية .

الهوامش

١. المجتمعات الاسلامية : ص٤٣٢- ٤٣٣.
٢. المجتمعات الاسلامية : ص ٣٤٨ -٣٤٩ .
٣. الأغاني للأصفهاني : ج١، ص١٥٣ .
٤. ديوان الأخطل : ص٢.
٥. تاريخ الامم والملوك ، ج٥ ، ص٦٠٨ .
٦. الهاشميات : ص٤.
٧. ديوان ذي الرمة : ص١٠٢.
٨. ديوان ذي الرمة : ص ١٧٤.
٩. ديوان ذي الرمة : ص٩٠ .
١٠.ديوان ذي الرمة : ص٦٩ .
١١.ديوان الاخطل : ص٧ .
١٢.ديوان ذي الرمة : ص١٢٢.
١٣.الكامل في اللغة والادب ، ج٣ ، ص١٦٠ .
١٤.ديوان جرير : ص١٥٣ .
١٥.العقد الفريد : ج٣، ص١٦٠ .
١٦.البيان والتبين : ج١، ص٣٩١.
١٧.ديوان الأخطل : ص٥٣ .
١٨.الكامل في اللغة والأدب/ ج٣ ،ص٢٥٣ ،القرآن الكريم – سورة البقرة ، الآية ٢٤٩ .
١٩.ديوان جرير : ص٥٣ ، القرآن الكريم – سورة الكهف ، الآية ١٧ .
٢٠.الكامل في اللغة والأدب ، ج٣ ، ص١٧٢ ، سورة الحجرات ، الآية ١٣.
٢١.ديوان فرزدق ، ص٧١٥ ، سورة العنكبوت ، الآية ٤١.
٢٢.ديوان جرير : ص١٧ ، سورة نوح ، الآية ٢٦-٢٧ .
٢٣.معاهد التنصيص : ص٢٢ ، سورة هود ، الآية ٦٥ .
٢٤.الكامل في اللغة والادب ، ج٣ ، ص١٧٠ ، سورة عمران ، الآية ٢٨ .
٢٥.التطور والتجديد في الشعر الأموي ، ص٦٩ .
٢٦.أمالي المرتضى : ج١، ص٦٥.
٢٧.التطور والتجديد في الشعر الأموي ، ص٦٩ .

٢٨.ديوان جرير : ص١٠٢.

٢٩.ديوان ذي الرمة : ص١٥٨ .

٣٠.الاغاني : ج١٩ ، ص١٤ .

٣١.الكامل في اللغة والادب ، ج٣، ص١٧٢.

٣٢.التطور والتجديد في الشعر الأموي ، ص١٠٢.

٣٣.ديوان جرير : ص٢٧٥.

٣٤.ديوان جرير : ص٤٥٥.

٣٥.ديوان جرير : ص٢٠٢.

٣٦.ديوان جرير : ص٢٠٢.

المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم .

٢. الأغاني : لأبي الفرج علي بن حسين الاصفهاني (ت/٣٥٦ هـ) ط ، ساسي ، دار الكتب المصرية .

٣. أمالي المرتضى : لأبي القاسم الشريف المرتضى علي بن الحسين (ت/٤٣٦هـ) ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، مطبعة دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ، (١٣٧٣هـ- ١٩٥٤م) .

٤. البيان والتبيين : لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت/٢٥٥هـ) ، تحقيق حسن السندوي ، ط الثانية ،المطبعة الرحمانية بمصر (١٣٥١هـ-١٩٣٢م).

٥. تاريخ الأمم والملوك : لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري(ت/٣١٠هـ) ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، مطبعة دار المعارف بمصر .

٦. تاريخ الشعر السياسي الى منتصف القرن الثاني : لأحمد الشايب ، ط الثانية ، مطبعة السعادة بمصر ، ١٩٥٣م.

٧. تاريخ النقائض في الشعر العربي : لأحمد الشايب ، ط الثانية ، مطبعة السعادة بمصر ، ١٩٥٤م.

٨. التطور والتجديد في الشعر الأموي : للدكتور شوقي ضيف ، ط الثانية ، مطبعة دار المعارف بمصر ، ١٩٥٩م .

٩. ديوان الأعشى والاعشين والاخرين : تحقيق جابر ، مطبعة ادلف هلز هوسن بيانه، ١٩٧٢م.

١٠. ديوان الأخطل : تحقيق الأب انطوان صالحاني اليسوعي ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٨٩١م .

١١. ديوان جرير : تحقيق محمد اسماعيل الصاوي ، ط الاولى ، مطبعة الصاوي ، ١٣٥٣هـ .

١٢. ديوان حسان بن ثابت : تحقيق محمد أفندي شكري ، مطبعة الإمام بمصر ، ١٣٢١هـ.

١٣. ديوان الفرزدق : تحقيق عبد الله اسماعيل الصاوي ، ط الاولى ، مطبعة الصاوي ، ١٣٥٤هـ .

١٤. ديوان ذي الرمة : تحقيق كارليل هنري هيس مكارتني ، مطبعة كمبردج ، ١٩١٩م.

١٥. ذيل الامالي والنوادر ، لأبي علي اسماعيل بن القاسم القالي ، ط الثانية ، مطبعة دار الكتب المصرية (١٣٤٤هـ- ١٩٢٦م) .

١٦. شرح المعلقات السبع : لأبي عبد الحسين الزوزني ، مطبعة الاستقامة ، بمصر (١٣٨٦هـ -١٩٦٧م).

١٧. شعر الخوارج : جمع وتحقيق إحسان عباس ، مطبعة دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٣م .

١٨. الشعر والشعراء : لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت/٢٧٦هـ) ، تحقيق احمد محمد شاكر ، مطبعة دار المعارف بمصر ١٩٦٧م .

١٩. العقد الفريد : لأبي عمر احمد بن محمد بن عبد ربه الاندلسي (ت/٣٢٨هـ) ، تحقيق احمد امين واخرين ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة، (١٣٥٩هـ -١٩٤٠م) .

٢٠. الغزل : للدكتور سامي الدهان ، مطبعة دار المعرف بمصر ١٩٥٤م .

٢١. الكامل في اللغة والأدب : لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد (ت/٢٨٥هـ) ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم والسيد شحاتة ، مطبعة نهضة مصر ، القاهرة .

٢٢. المجتمعات الإسلامية في القرن ألول : للدكتور شكري فيصل ، ط الاولى ، مطابع دار الكتاب العربي بمصر ، (١٣٧١هـ -١٩٥٢م) .

٢٣. معاهد التنصيص على شرح شواهد التلخيص : لعبد الرحيم عبد الرحمن بن احمد العباس ، ط الاولى ، ١٢٧٤هـ .

٢٤. الهاشميات : للكميت بن زيد الاسدي (١٢٦هـ) ، تحقيق محمد شاكر الخياط، الطبعة الاولى ، مطبعة الموسوعات بمصر ، ١٣٢١هـ .

٢٥. الهجاء والهجاءون في الجاهلية : للدكتور محمد محمد حسين ، الطبعة الاولى ، مطبعة احمد مخيمر بمصر ، ١٩٤٧ م .

٢٦. الهجاء والهجاءون في صدر الاسلام : للدكتور محمد محمد حسين ، الطبعة الاولى ، مطبعة احمد مخيمر بمصر ، ١٩٤٧ م .